الطبيعة .. المفهوم والمخالفة

د. أحمد محمد كنعان

الطبيعة (Nature): لفظ مشتق من الطبع. وطبع. وطبع. وطبعة أي خُلُقُه. وطبيعته أي خلقته التي خلق عليها من حيث شكله ولونه وسلوكه وبقية أوصافه، ومن هنا يأتي الطبع بمعنى الختم وهو التأثير في الشيء ليتشكل على هيئة معينة، والطبيعي هو غير الصنعي، وإذا أطلق اسم الطبيعة قصد به كل ما هو موجود في هذا الكون من مخلوقات الله عز وجل وعلم الطبيعة هو العلم الذي يبحث في طبائع المأشياء وما اختصت به، والطبائع المأربعة عند المأقدمين هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

1_الطبيعة والسنن الإلهية

لقد جعل الله ـ عز وجل ـ لكل مخلوق من مخلوقاته طبيعته الخاصة به، وقدر لكل منها مجموعة من السنن (القوانين) التي تميزه عن غيره من المخلوقات، وهذه السنن لما يمكن تغيرها ولما تعديلها كما قال تعالى: (فَلَنْ تَجْدَلِسُنُتِ اللَّهِ تَبُدِيلًا وَلَا تَعْدَيلُها كما قال تعالى: (فَلَنْ تَجْدَلِسُنُتِ اللَّهِ تَبُدِيلًا وَلَا تَعْدَيلُها كما قال تعالى: (فَلَنْ تَجْدَلِسُنُتِ اللَّهِ تَبُدُيلًا وَلَا تَعْدَلُها وَلَا تَعْدَلُها كما قال تعالى: (فَالَنْ تَجْدَلِسُنُ اللَّهِ عَلَى عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى تَوْفِيلًا وَلَا لَا عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى (فَاطُولُهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى

فمن طبيعة الماء مثلاً أنه يتجمد عند درجة الصفر المئوية، ويتبخر عند (100) بينما طبيعة الحديد أنه يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة؛ ومن طبيعة الإنسان أنه يتنفس الهواء ويموت إذا ما غرق بالماء، بينما تعيش الأسماك بالماء وتموت إذا ما خرجت إلى المهواء؛

والمخلوق لا يستطيع الفكاك عن طبيعته التي خلقه الله عليها، ولا يستطيع الخلاص من إسار السنن التي تحكم هذه الطبيعة، وإذا ما تغيرت طبيعة الشيء فهذا يعني أن سننًا أخرى دخلت فيها، فالماء مثلا إذا مزج ببعض السوائل كالغليسيرين (Glycerin) لم يعد يتجمد عند الصفر ولم يعد يتبخر عند درجة المائة، ويفيدنا فهم طبيعة المخلوقات على هذه الصورة في عدة أمور:

* فما دام لكل مخلوق طبيعته التي لا تنفك عنه فينبغي علينا أن ندرك هذه الطبيعة والسنن التي تحكمها، لكي نستطيع تسخير هذا المخلوق تسخيرًا مجديًا، وهكذا فإننا عندما عرفنا السنن التي تحكم الماء أصبحنا قادرين على تسخيره في خدمتنا، وكذلك الحديد، وكذلك سائر المخلوقات.

* بما أنه لما يمكن تغيير ولما تعديل السنن التي قدرها الله عز وجل للمخلوقات، فإن علينا توجيه اهتمامنا لكشف هذه السنن لما إلى تغييرها أو تعديلها.

*إن عدم القدرة على تغيير السنن لا يعني العجز أمام طبائع الأشياء، بل يمكن الاستفادة من معارضة بعض السنن لبعض، أو تآزر بعض السنن مع بعض، من أجل الحصول على مزايا جديدة لم تكن موجودة من قبل، ومثال ذلك تآزر الغليسرين مع الماء لتغيير طبيعة الماء كما ذكرنا آنفاً، ودوران المركبات الفضائية حول الأرض بمعارضة سنة القوة الطاردة لسنة الجاذبية الأرضية وبهذا تتمكن المركبات من الدوران حول الأرض لسنوات طويلة بلا محركات ولما وقود، ومن ذلك أيضاً مدافعة سنة المرض بسنة المداوى.. وهكذا.

2_ تسخير المخلوقات

لقد كرم المله عز وجل المانسان فاختاره من بين سائر المخلوقات ليكون الخليفة في خلقه، وسخر له كل المخلوقات المذكري المخلوقات المنطوع والمنطوع والمنطو

) الجاثية 13،12. وتسخير المخلوقات للإنسان لا يعني امتثالها لأمره من غير جهد يبذله، بل لا بد للإنسان أن يبذل الجهد الكافي لمعرفة السنن التي تحكم طبائع المخلوقات، وأن يدرك كيفية عمل هذه السنن، وأن يعيد لها الشروط اللازمة لكي تفعل فعلها، فيستفيد من خصائصها ويسخرها في خدمته. علمًا بأن القدرة على اكتشاف السنن المإلهية وتسخيرها ليس حكرًا على المؤمنين وحدهم، بل هو باب مفتوح للجميع، مؤمنين وغير مؤمنين، كما قال تعالى: (كُنُانُمُّدُ وُلْنَهِ وَمَوُّلَهَ مِنْ عَطْاَءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطْاَءُ رَبِّكَ عَطْاًءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) المإسراء 20

3_قهر الطبيعة

هو تعبير يستخدم! أو ما ذرى إصرارهم على ذلك؟ من قبل بعض المفكرين والعلماء والفلاسفة والملحدين الذين ينكرون أن الله ـ عز وجل ـ هو خالق الطبيعة، وأنه هو الذي سخرها للإنسان، فهؤلاء بإنكارهم للخالق يتصورون أنفسهم في مواجهة مباشرة مع الطبيعة، ويرون أنها تتحداهم من خلال سننها الصارمة ولهذا يتصورون أنهم كلما اكتشفوا شيئًا من سنن الطبيعة فإنهم يكونون قد قهروها وحققوا الانتصار عليها(؟!) وهذا اعتقاد ظاهر الفساد، لأن الله ـ عز وجل ـ الذي خلق الطبيعة لم يجعلها عَصِيّة على البشر، بل سخرها لهم كما بينا آنفاً.

ومن ثم فلا يجوز شرعًا استعمال مصطلح (قهر الطبيعة) لأنه يتنافى مع الاعتراف لله ـ تعالى ـ بفضله علينا إن سخر لنا كل ما في هذا الوجود! ولقد كان الفيلسوف الهولندي اسبينوزا مُحِقًاً. وكان أكثر وعيًا من هؤلاء الملحدين حين قال: (إن حرية الفعل لا تقوم في المتحرر من المجبرية التي تسود الطبيعة بل في إدراك الإنسان لعبوديته وقبوله لما يجري)، فالمسألة إذن ليست مسألة صراع وتحد وقهر بين الإنسان والمطبيعة كما يتوهم الملحدون المضالون. وحريً بالإنسان أن يشكر الله ـ عز وجل ـ كلما وفقه لاكتشاف شيء من سنن الطبيعة التي لم تخلق أصلا إلما من أجله والتي أخبرنا الله ـ تعالى ـ أنه هو الذي سوف يسهل لنا أمر اكتشافها: (سَنُرِيهمُ عَيَاتِينَا في الفَوري وَحَلَى الله عَلَى اله عَلَى الله عَلَى

_الطبيعة مخلوقة لا خالقة

ومن المأخطاء الشائعة أيضاً بين كثير من الكتاب والمفكرين والفلاسفة أنهم ينسبون المفعال للطبيعة وبخاصة منها المأفعال المتبرعن الخلق، فيقولون عثلاً: إن الطبيعة تخلق أصنافاً عديدة من المنبات! أو يقولون: إن الطبيعة جعلت الإنسان في قمة المكائنات الحية! ونحو ذلك من المتعابير التي تضفي على الطبيعة بعض الصفات الإلهية، وهذا شرك لما شك فيه، فالطبيعة بكل ما فيها المكائنات الحية! ونحو ذلك من المتعابير التي تضفي على الطبيعة للمتعدد على فعل أسيء إلما وأمر الله عن وجل. فما دالك بعملية المخلقة! (ركاً أينما هي مخلوقة من قبل الذين تدُّعُون من دون الله لن يَخْلُقوا ذباباً ولواح تمعواً له وإن يس لبده النباب شيئاً النيس تنوّده من ها الطالب والمطلوب المحج 73.

العودة إلى الطبيعة

قلنا إن الله _ عز وجل _ قد خلق المخلوقات المختلفة، وقدر لكل منها سننًا لتسير على منوالها، ومن ذلك مثلاً أنه خلق للإنسان طعامًا طبيعيًّا يناسبه من الماء والمنبات والحيوان، ولكن مع تقدم العلوم ظهرت على الساحة أطعمة مختلفة ببعض المواد المصنعة كالملونات (stains) والمنكهات (flavours) كما ظهرت أطعمة مصنوعة كلها من مواد كيماوية، وقد بدأت تظهر بعض العوارض السلبية بسبب هذه المخالفة للطبيعة، وأصبحنا في كل يوم نقرأ تقارير طبية تحذر من أضرار هذه المخالفة، وتدعو للعودة إلى الطبيعة، كالعودة مثلاً لإرضاع الطفل من ثدي أمه بدلاً من تغذيته بالمأطعمة المصنعة، وهي دعوة حكيمة لما شك فيها، لأن حليب المأم أنسب لطبيعة الطفل من أي غذاء آخر، وكذلك سائر المخالفات للطبيعة، سواء في الطعام أو في غيره كالممارسات المنسية المشاذة التي تخالف فطرة البشر ومنها على سبيل المثال اللواط، والسحاق، وجماع الحيوانات، وغير ذلك من أشكال المخالفات للطبيعة التي فطر الله _ عز وجل _ عليها خلقه!

وفي الواقع فإن البشر في عصرنا الراهن قد تمادوا كثيراً في مخالفتهم للطبيعة، في شتى الأنشطة والحقول، حتى بلغت هذه المخالفة حدًّا يهدد بكوارث عالمية، وقد سبق أن عرضنا جانبًا من هذه القضية في حديث لنا عن البيئة، وعما ألم بها من تغيرات مصطنعة أثرت في عذريتها، ولوثتها وأخرجتها عن طبيعتها التي خلقت عليها، وقد بدأ العلماء يحذرون من خطورة هذا التأثير، ويدعون لإهادة البيئة إلى طبيعتها الأولى حفاظًا على صحة الحياة في الأرض، وإن عندنا من نصوص الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح الكثير مما يدعو للمحافظة على عذرية الطبيعة والتعامل معها تعاملًا منضبطًا يستثمرها ويستفيد من خيراتها دون أن

يمسها بسوء!. 🏿